Studies in Spirituality - Weekly Torah Portions by Rabbi Lord Jonathan Sacks zt"l

في رِحاب التّوراة

دِراساتٌ وحِواراتٌ روحانيّة مُعمّقة في النّصوصِ التّوراتيّة الأسبوعيّة مع الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY

The Original text in English and translations to other languages can be found here:
https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation/toldot/a-fathers-love/

"تولدوت" هو النصّ الأسبوعي السادِس من كتاب "بريشِيت" (سِفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بالآية التاسعة عشرة من المَقطع الخامس والعشرين وينتهي بالآية التاسعة من المَقطع الثامن والعشرين.

مَحَبّةُ الأبّ

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

تقول الآيتان السابعة والعشرون والثامنة والعشرون من المقطع الخامس والعشرين من سفر التكوين: "**ولَمّا كَبُرَ الغلامان فكانَ عيسَو/عيسَو رَجُلاً عارِفاً بالصَيْد، رَجُلاً صحراويّاً، ويَعقوف رجلاً ساذجاً مُقيماً في الأخبية. فأحَبّ يتسحَق عِيسَو لِمعرِفَتِه بالصّيد، ورِفقه أَحَبَّت يَعقوف**".

ليسَ مِنَ الصَّعبِ أبداً أن نفهَمَ سبب حُبّ رِفقه/ رِفقة لابنها يَعقوف/يَعقوب وتَفضيلها لهُ، خاصة وأنه كان لها نُبوءة من الله عزّ وجل تتعلّقُ بابنيها، حيث يقول الله في سفر التكوين في الآية الثالثة والعشرين من السفر والمقطع نفسه:

"فَقالَ اللهُ لها إنّ آباءَ أُمّتينِ في بَطنِكِ، وحِزبينِ من أمعائِك يتفَرّقانِ، ويتأيّدُ أحدُهُما من الآخَر، والكبيرُ يخدمُ الصّغيرَ".

ويَعقوف كان الابنَ الأصغر، فيما يبدو أن رفقه توصّلت إلى استنتاجٍ - اتّضحَ لاحِقاً بأنه صحيح - مَفادهُ بأن يَعقوف هو الابنُ الذي سيُكملُ مِشوار العهدِ مع الله عز وجلّ، وهو الذي سيلتزم بمواصلة الإرثِ الروحيّ لأبيه أفرهام وسيُعلّمهُ لأبنائه وأحفاده من بعده، حامِلاً معهُ القصّة اليهوديّة نَحو المُستقبل.

لكن السؤال الذي يطرحُ نفسهُ هُنا: لماذا كان يتسحَق يُفضِّلُ عيسَف/عيسَو على يَعقوف؟ ألم ير يتسحَق بأنّ ابنه عيسَف مولَعٌ بالصيدَ والبراري وبأنه ليس بذلك الشخص المُحِبّ للتأمّل والتعمّق الروحيّ وأنهُ ليسَ بالإنسان الراغب في التقَرّب منَ الله عز وجلّ؟ أليسَ من المُرجّحِ أن تكون محبّة يتسحَق لعيسَف نابعة من كون يتسحَق كان يَهوى الصيد والبَراري هوَ الآخَر؟ هل سيطَرَت هِوايَتهُ على تَفكيرِه وعاطِفته؟ وهل كان يتسحَق يجهلُ ما فعله ابنه عيسَف حين تنازل لأخيه يَعقوف عن الامتيازات التي يحظى بها لكونِه الابن البِكر مقابل صحنٍ من العَدَس، مُستخِفاً ومُهيناً بفعلته هذه بتلك

الامتيازات؟ (تبعاً للآياتِ 29-34 من نفس المقطع) وهل شخصٌ بهذه الصِفات يُعتبرُ جديراً بالثّقة حتى يستكمل الإرثَ الروحيّ الذي سيورِثهُ إياهُ والده؟

لقد كان يتسحَق يعلمُ عِلم اليقين بأن ابنه الكبيرَ عيسَف هو شخصٌ مُتقلّبَ الأهواء والمزاج، وأن حياته تتقلّب بتقلّبات عاطفته في كل لحظة يعيشها. وعلى فرض أن هذه الحقيقة لم تُثقِل كاهِل يتسحَق، إلا أن المرحلة اللاحقة من حياة عيسَف قد أثقَلت كاهله دون أدنى شك، تِبعاً لما جاء في الآيات 34 و35 من المقطع السادس والعشرين من سفر التكوين:

"ولمّا كان عيسَف ابن أربعين سنة، تزوّج بامرأةٍ اسمها يهوديت، ابنةُ بئريّ الحيثي، وبِباسمَتْ ابنةِ إيلون الحيثي. فكانتا مُخالفتين رأي يتسحَق ورِفقة". بالتالي عاشَ عيسَف بين الحيثيّينَ وتزوّج اثنتين من نسائهِم، الأمرُ الذي لا يُخوِّلُهُ أبداً بأن يكون وَصياً على الإرث الإبراهيميّ وحامِلاً لرسالة العهد الروحيّ مع الله عزّ وجل، لأن حَملَ هذه الرّسالة يتطلّبُ من عيسَف ان يَنأى بنفسهِ عن الحيثيّين والكنعانيّين ودياناتهم وثقافاتهم وما يُمثّلونهُ من منظومة أخلاقيّة.

لكن يتسحَق كان يُحِبّ ويُفضِّلُ ابنهُ عيسَف وهذا كان **أمراً واضحاً وضوح الشمس**، فهذا ما أكّدته الآيات التي اقتبستها في بداية هذه المقالة، وهذا ما يُذكّرنا به أيضاً المقطع السابع والعشرون من سفر التكوين عبر القصة التي تحمل بين ثناياها المُعضِلةِ الأخْلاقيّةِ المتمثلة في خِداع يَعقوف لأبيه حين ارتدى ملابسَ أخيه عيسَف وأخذ البركة بدلاً منه. إنها قصّة بالغة الأهمية لما حملتهُ من وصفٍ يُصوّرُ حالة الانسجامِ والمحبّةِ الشديدَتين بين عيسَف وأبيه يتسحَق، هذه العواطِفُ التي نستشعرها في حديثِ يتسحَق في بداية الأمر حينَ طَلَب من عيسَف قائلاً: **"إئتِني بِصيدٍ، وأصلِحهُ لِي ألواناً آكُلُ مِنهُ، حتّى أُبارِكَك بينَ يدي الله قَبل مَوتي"** بحسب ما تُخبرنا الآية السابعة من المقطع السابع والعشرين من سفر التكوين. إن كلِمات يتسحَق هذه لا تُشير إلى شهيّته لتناول الطعام، بَل هي رغبَتهُ الجامحةُ في أن يكونَ مُحاطاً بِرائحةٍ ومذاقٍ يرتبطُ ارتباطاً وَثيقاً بصِفات ابنِه البِكرِ، بِالتالي كان يتسحَق يرغَبُ بأن يكون في أقصى درجات مَحبّته لعيسَف وهو يُباركهُ.

في الوقت نفسه، فإن نِهاية القصّة هي التي تكشفُ عُمقَ المشاعر التي تختلجُ صدريهما، فعيسَف يدخلُ إلى أبيه جالِباً معهُ الطعامَ الذي حضّرهُ بنفسه لهُ، وشيئاً فشيئاً يبدأ يتسحَق ثم عيسَف بإدراك ما يتعرّضُ لهُ كلاهما من خِداعٍ وتَضليل، حينها بدأ يتسحَق **"يرتَجِف بشدّة"**، أما عيسَف فَقد **"صَرَخ صَرخة عَظيمة ومُرّة جِدّاً"** مثلما تخبرنا الآيتان الثالثة والثلاثون والرابعة والثلاثون من المقطع السابع والعشرين من سفر التكوين. إنه من الصعب جداً إيجاد الكلمات التي تُعبّرُ عن عُنفوانِ ذلك المشهد بلُغةٍ أخرى غير اللغة العبرية التي كُتِبت بها التّوراة. كما أن التّوراة تتحدّثُ بإيجازٍ شديدٍ عندما يتعلّق الأمر بِعواطِف البشر عُموماً، وفي قصّة مثل قصّة التضحية بيتسحَق فإن التّوراة بالكاد تُخبرنا عمّا اختلجَ أفْرهام وابنهُ يتسحَق من مشاعر على الرغم من أنّهُ واحِدٌ من أكثر المواقِف المشحونة والغزيرة بالعواطف في سِفر التكوين.

لكن ومثلما وضَّح عالِم اللُّغويات إريك أورباخ فإن "خلفيّة النصّ مشحونة بالخبايا"، بمعنى أن ما لم يُقَل في هذا المشهد هو أكثَر بكثيرٍ مِمّا قِيل فيه[1]، والتوراة لم تتكلّم بين صفحاتها بهذا العُمق والاستِغراق كما تكلّمت عن عمليّة الخداع التي تعرّض لها يتسحَق وابنه عيسَف، فالأبُ والابنُ يختلجِهُما الشعور نفسه، وهو تعرُّضهُما للخيانة، فيَقتِربُ عيسَف بمنُتهى الشغفِ من أبيه ليُباركه، بينما يَنهَضُ يَعقوف لِيأخُذَ البركة بدلاً من أخيه. وفي ظِلّ عاطفة الحُبّ المَتينة التي تجمعُ يتسحَق بابنه عيسَف، فإنّ السؤال الذي يَطرحُ نفسه بقوّة هُنا: لماذا أحَبّ يتسحَق ابنه عيسَف رغم كُلّ ما ذكرناه، رغمَ بَربَريّته وعدم استِقراره وزواجِه من نِساء قبيلةٍ غير مرغوبٍ فيها؟

لقد بيّنَ لنا كبارُ الحاخاماتُ الإجابة عن هذا السؤال، حيثُ فَسّروا عبارة **"كان رَجُلاً عارِفاً بالصّيدِ"** (المذكورة في الآية السابعة والعشرين من المقطع الخامس والعشرين) بأنها تَعني أن عيسَف قد خدع يتسحَق وأوقعُه في الفَخّ حين تظاهرَ بأنّه مُتديّن، لكن لم يكُن تديّنهُ في الحقيقة بتلك الدرجة التي يُظهِرُها أمام أخيه[2]. في الوقتِ نفسه يوجدُ تِفسيرٌ مُختلفٌ لكنّه أكثرُ إثارةً للمشاعِر ويتوافقُ مع روح النّص: **لقدَ أحبّ يتسحَق ابنهُ عيسَف لأنه كان ابنه، وهذا ما يشعُرُ به الآباءُ تِجاه أبنائِهِم بشكلٍ تلقائيّ**، فهُم يحبّونهُم دون قيدٍ أو شَرط، لكن هذا لا يَعني بالضّرورة أن يتسحَق لم يكُن يُدرِكُ عيوبَ وسلبيات شخصيّة ابنه عيسَف، وهذا يُجعلنا نفترضُ بأن يتسحَق لم يكُن يعتقدُ بأنّ عيسَف هو الشخصّ المُناسِب ليُكمِلَ مِشوارَ العهدِ مع الله عَزّ وجَل، وهذا أيضاً لا يَعني أنّ يتسحَق لم يكن يتألّمُ عَقِبَ زواجِ ابنِه عيسَف نساءً مِن قَبيلة الحيثيّين، فالنّصُّ يقولُ بصريحِ العبارة بأن يتسحَق قد تألّمَ جداً نتيجة لذلك. في الوَقت نفسه، فإن يتسحَق يُدركُ تماماً أن **الأبَ يتوجَّبُ عليه أن يُحِبَّ ابنَه أياً كانت الظروف، لأنه ببساطة ابنه،** وهذا الحُبّ لا يَتناقضُ أبداً مع انتِقادِ الأبِ لتُصرّفاتِ الإبن، إلا أن هذا الانتقاد لا يعني أن يتبرّأ الأبُ من ابنه حتى لو خَيّبَ الابن آمالَ أبيه، لهذا كان يتسحَق يُعلّمنا دَرساً أساسياً جداً فيما يتعلّقُ بالأُبوّة.

لكن لماذا يتسحَق تحديداً هو الذي يعلّمنا درساً كهذا؟ لِأنهُ يعلمُ أن أباهُ أقْرهام قد أبعَدَ ابنهُ بِشمَعئيل/إسماعيل عنه، ولربّما كان يُدركُ جيّداً حجم الألم الذي اعتصرَ قلبَ أقْرهام وحجم الجَرح الذي شعر به بِشمَعئيل نتيجة ذلك. ويوجد عدد من تفاسير المدراش* البارزة التي توضّح لنا بأن أقْرهام قد زار ابنه بِشمَعئيل بَعد أن أبعَده، فيما يوضّح آخرون بأن يتسحَق هو مَن توسّط بينهما حتى يتصالحا[3]، لهذا كان يتسحَق حَريصاً جداً على ألا يواجه ابنه عيسَف المصيرَ ذاته.

بالتالي كان يتسحَق يُدركُ تماماً الثمنَ النفسيّ الذي دفعَهُ والده والذي دفعه هو شخصياً بعد ما أراد والده التضحية به وتقديمه كَقُربانٍ لله عزّ وجل. وفي بداية المَقطَع الذي يُخبِرُنا عن قصّة يَعقوف وعيسَف، يوجدُ تفسيرٌ مدراشيّ يوضّح لنا بأن الدّموعَ التي ذرفتها الملائكة لِرؤية أقْرهام وهو على وشكِ التضحية بابنه رافِعاً السكين على رقبته قد دخلَت إلى عَيني يتسحَق مُسبّبة لهُ العَمى بعد تقدّمه في العُمر[4]. لقد كان ذلك الاختبار الإلهي لأقْرهام ضرورياً جداً، ولو لم يكن بتلك الدرجة من الضرورة لما طلبَ اللهُ عزّ وجل من أقْرهام القيام بذلك، لكن في الوقت نفسه فقد تركَ هذا الموقف جِراحاً عميقة وندوباً نفسيّة عميقة جعلَت يتسحَق مُصرّاً على عدم التضحية بفلذةِ كبِده عيسَف. وبطريقة أو بأخرى، فإن حُبّ يتسحَق لابنه عيسَف دون قيدٍ أو شَرطٍ كان بمثابة **تيكون** (إصلاح أو رأب) لذلك الصّدعِ في العلاقة بين الأب وابنه والتي خلّفتها قِصّة التضحية به على يدِ والده. بالتالي، وعلى الرغمِ من أن طريقَ عيسَف لم تكُن نفسها طريقَ العهدِ مع الله عز وجل، إلا أن نعمة الحبّ الأبوي التي يمتاز بها يتسحَق قد مهّدَت الطريق للجيلِ القادمِ من بَني إسرائيل حتى يظلّوا مُتمسكين بهذا العهد.

ويوجدُ نِقاشٌ مُذهلٌ جداً بين اثنين من كبار حاخامات المِشناه **(مجموعة النصوص المكتوبة للتوراة اليهودية الشَّفهية والتي تُفصِّلُ العديد من المواضيع المَذكورة في التوراة) الحكماء تعقيباً على هذه النقطة، حيث تقول الآية الأولى من المقطع الرابع عشر من سفر التثنية في وصف اليهود: "**وإذ أنتُم أبناء (أولياء) الله**"؛ وتعقيباً على هذا الوصف، يوضّحُ الحاخام يهودَه بأن هذا الوصف ينطبق على اليهود فقط عندما يتصرّفون بطريقة يستحقّون بها وصفَ أبناءَ الله، في حين أن الحاخام مئير يوضّح بأن هذا الوصف غير مُقترن بأي قيدٍ أو شرط: سواءً تصرّف اليهود بطريقة تتناسبُ مع من يستحقّون وصفَ أبناء الله أم لا، فإنهم يظلّون أبناءَ الله بجميع الأَحوال. [5]

وكانَ الحاخام مئير الذي آمن بعدم وجود قيد أو شرطٍ للمحبّة يتصرّفُ انطلاقاً من وجهة نظره هذه، فحين قام أستاذهُ ومُعلّمه الحاخام أليشاع بن أبوياه بِترك الدين اليهودي وصار من المُهرطقين، إلا أنه ورغم تركه للدين فقد ظلّ مواظِباً على دراسة التوراة مع الحاخام مئير، في حين ظل الحاخام مئير يحترمه ويوقّره جداً حتى آخر لحظة من عُمره. وبنهاية المطاف تاب الحاخام بِن أبويا وعاد إلى الدين اليهودي قبل وَفاتِه. [6]

*** مُلاحظة توضيحيّة من المُترجم:** المِدراش هو مصطلحٌ يُشيرُ إلى التفاسيرُ اليهودية المُوسّعة للكتاب اليهوديّ المُقدس (التناخ)، بحيث تستندُ هذه التفاسير إلى نمطٍ حاخاميّ شائع الاستخدام في كتاب التلمود (التلمودُ هو النصّ المركزيّ في الحاخامية اليهودية ويعدّ المصدر الأساسي للديانة اليهودية وللشريعة اليهودية المعروفة باسم الهلاخاه). ومن ناحية لغويّة فإن كلمة مِدراش تَعني تفسيرَ النصّ بالنّص، كما تعني أيضاً الدّراسة، وهي مُشتقة من الجذر "دَ.ر.ش" في اللغة العبرية، والذي يحمل في طيّاته أكثر من معنى، منها البحث المُتأنّي والاستفسار والطلبُ، وتظهرُ اشتقاقاتُ كثيرة لهذا الفعل على نحو مُتكرر في الكتاب اليهودي المُقدس. كما أن التفاسير المِدراشية والقراءات الحاخامية للنصوص الدينية تهدفُ إلى البحثِ عن القيمة الموجودة في النصوص والكلمات والحروف أيضاً، وهي تعتمدُ التفاسير المِدراشية على أسلوب طرح الأسئلة حول النص الديني، وفي بعض الأحيان تُجيبُ على تلك الأسئلة، وفي أحيان أخرى تتركُ المجال مَفتوحاً أمام القارئ ليُجيب عنها بنفسه. والتفسيرُ المدراشي يُعد نهجاً يهودياً مُميزاً، فهو لا يُحاول فهمَ الكلمات الموجودة في النصّ الديني وما وراءه من أفكار فحسب، بل يذهب بعيداً ليتطرّقُ إلى ما هو غيرُ موجودٍ في الآية، أيّ كل حرف وكل كلمة لم تُذكَر في هذا النصّ. إن الأسلوب المدراشي يتضمّنُ تفسيراتٍ قديمة للتوراة المكتوبة والشفهية (القوانين والمناسك الدينية التي انتقلت بالمشافهة)، بالإضافة إلى الكتابات الحاخامية التي لا تتمحور حول القوانين (أغاداه) أو التشريعات الدينية اليهودية (الهلاخاه) التي تجسّدُ بالعادة تفسيراً مُكتملاً لتفسير نصوصٍ معيّنة من الكتاب اليهوديّ المُقدس (التّناخ).

**** ملاحظة توضيحية من المترجم :** كلمة مِشناه تَعني باللغة العبرية الدراسة من خلال التكرار ودراسة موضوع معين ومُراجعته. ويقصد بها اصطلاحاً أوّل مجموعة رئيسية مكتوبة للتقاليد والسير التوراتية الشفهية، وهي أول عمل رئيسي للنصوص الحاخامية. وتمت كتابة المشناه وتدقيقها وتنقيحها على يد الحاخام يهوداه هَنَسي في أرض يسرائيل بداية القرن الثالث بعد الميلاد، خلال حقبة زمنية شهدت اضطهاداً لليهود، ومرور الوقت خلال هذا الاضطهاد أدى إلى زيادة احتمالية اندثار السير والتقاليد التوراتية الشفهية التي تعود إلى عهد الهيكل اليهود الثاني (516 ق.م حتى 70م). وأغلب مُحتوى المشناه مكتوب بلغة عبرية خاصة بالمشناه، لكن بعضاً منها مكتوب باللغة الآرامية. وتنقسم المشناه لستة أجزاء (سداريم): زُراعِيم (الزراعة) الذي يتطرق للشرائع المتعلقة بأرض يسرائيل - موعيد (المواعيد) الذي يتطرق لشرائع الإجازات والأعياد والصيام - نشيم (النساء) الذي يتطرق لشؤون الأسرة والزواج والطلاق وغير ذلك... - نزيقين (الأضرار) الذي يتطرق للقوانين المدنية والجنائية والنظام القضائي اليهوديّ - قوداشيم (المقدسات) الذي يتطرق لشؤون الهيكل والمقدسات - طَهَروت (الطهارة) الذي يتطرق لشؤون الطهارة.

بالتالي حتى نفهمَ هذه الفكرة الجوهَريّة في الديانة اليهودية، أقصد فكرة **"أفينو مَلكينو"** (أي أبانا إلَهُنا ومَلِكُنا منذ الأزل وأبينا للأبد)، فإنه يتوجّبُ علينا أن نبذل جُهداً كبيراً من أعماقِ عاطِفتنا لإنجاح علاقتِنا بالله عز وجل. ولا شكّ بأن الله عزَ وجلّ يُواجهنا بنفس الطَريقة التي يُواجهُ بها الأب أبناءهُ، ونحن نقوم بالمثل وبالطريقةِ ذاتِها التي يواجهُ بها الأبناء آباءهُم.

وممّا لا شكّ فيه، فإن هذه العلاقة لها مدٌّ وجَزر، فقد تتخذ طابعاً حادّا في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى قد يطغى على ملامحها الصّراع والألمُ، لكن ما يمنحُها هذا العُمق هو معرفتُنا المُسبقةُ بأنها علاقة متينة وثيقة أياً كانَت الظروف المحيطة بها، فمهما حصلَ بينهما يظلّ الأبُ أباً والابن ابناً، ومهما ساءت العلاقة إلا أنها لن تصل لمرحلة الانقطاع نهائياً.

ولربّما تكون هذه هي الرّسالة التي أرادَ يتسحَق إيصالها للأجيال اللاحقة من خِلال محبّته لابنهِ عيسَف، فرغم عدم التشابه بينهما، ورغم الاختلاف في شخصيّة ومصير كليهما، إلا أن يتسحَق لم يُغلِق باب مَحبّته أمام ابنه عيسَف، وهذا ما فعلَه أفرهام الذي لم يترُك ابنه يشمعئيل/إسماعيل.

ودوماً ما كان يجدُ طريقة للتواصل معه بحسب ما تُخبرِنا تفسيرات المِدراش. إن علاقة المحبة غيرَ المشروطة ليسَ بالضرورة أن تكون علاقة سلسة، وهي بالطّبع ليسَت خالية من الانتقادات بين طرفيها، لكنها بالتأكيد علاقة وثيقة متينة، فهكذا يجبُ أن تكون محبّة الآباء لأبنائِهم، وهكذا هي محبّة اللهِ عزّ وجلّ لَنا.

---

1. Erich Auerbach, Mimesis: The Representation of Reality in Western Literature, translated by Willard R. Trask (Princeton: Princeton UP, 1953).
2. كما كان يسأله أيضاً: "أبي، كيف بإمكاني أن أُخرجَ ضريبة العُشر بالنسبة للملح والتبن؟ مع العلم بأنهما معفيان من هذه الضريبة. بالتالي كان يعتقدُ يتسحَق بأنه يطرح مثل هذه الأسئلة من باب الدقة في قراءته وملاحظته للوصايا.
3. انظر هذا الكتاب للحاخام جوناثان ساكس:
See Jonathan Sacks, Not in God's Name: Confronting Religious Violence (New York: Schocken Books, 2017), 107–124.
4. سفر التكوين - رابا 10:65
5. Kiddushin 36a
6. Y. Ĥagiga 2:1

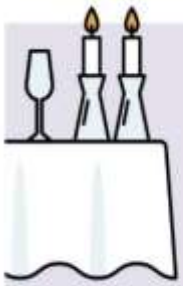

حَولَ مائِدةِ يومِ السَبتِ المُقَدَّسِ: أَسئِلةٌ لِلتَأَمُلِ

1- باعتقادك ما هو مصدر الحب العميق الذي يكنه الآباء لأبنائهم؟
2- هل تعتقد أن عيسَف/عيسَو كان يستحق هذا الحب من أبيه؟
3- لماذا تقوم التوراة بتعليم الآباء درساً حول الحب دون قيد أو شرط؟ أليست هذه المحبة عاطفة طبيعية لديهم؟

● These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at **https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/toldot/a-fathers-love/**

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism*, *Bar Ilan University*